

معقل الانسانية

مرح طرقتك في عالم القرن السادس المسمى ولا يفتنك الابنية الشاحنة المشيدة والملابس الفاخرة المزخرفة وقناطير الذهب والفضة المقنطرة ، فذلك ماتراه في مجموع الصور القديمة ودار الاثار العتيقة ، ولكن انظر هل ترى للبرودة حياة في ناحية من نواحي الشرق والغرب ! أحبس نفسك واستمع ، هل تحس لها عرقاً ينبض وقلبا يخفق ؟

ترى الحياة بحرا يزدرد فيه الحوت الكبير الحوت الصغير والعالم غلبة يفترس فيها الأسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخروف ، لقد اتصرت الشر على الخير ، والرذيلة على الفضيلة ! والأهواء على العقل ، والبطن على الروح ، لقد تناولت الأرض السماء سفاقة ، ونصبت للفرقدين الجبائل .

أصبحت الدنيا سوق المتأداة ، بضائعها كل ملك ووزير وغنى وفقير يباعون بيع السلع فهل ترى في هذا القمار قى يربأ بنفسه عن أن يباع بيع الساعة وينادى : أن هذا الجو الفسح لا يسع لطيرائي : لقد كانت الحياة لا تقع مني ، كان الخلق الله لي حياة ثانية فكيف أبيع روحي وجوهر انساني بكسر من كسور هذا العالم الصغير ؟

لقد صارت للشعوب والبلاد ثم القبائل والعشائر ثم الأسر والبيوتات دوائر صغيرة ، واعتاد أصحاب الطموح والكبرياء أن يسكنوا فيها كالأقزام فلا يصيغون بها ذرعا ولا يبنون عنها بدلا ، ولا يرون في خارجها حياة ولا يعرفون البشرية أوسع وعالما أفسح ، لقد أصبحت الحياة تعاطيا في البيع والشراء وتسابقا في المكيدة والخذاع ، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح أو لوعة قلب ومحو نفس .

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة ، وحشائش شيطانية فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية والحشرات السامة وفيها مستنقعات فيها أنواع العنق ، وفي الغابة كل سبع مخيف ، وكل طائر جادح ، وفي المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالانسان

ويعتص دمه ، ولكن لم يكن في هذا العالم المزدهم بانبش من يستحق أن يسمى بشراً ، أما الرجال فقد لجأوا إلى المغارات والاديوار والكنايس واحتفظوا بدينهم وحياتهم أو مكثوا في تيار الحياة يتلهون بالفلسفة ويتغنون بالشعر وليس في المدينة رجل جد يكافح أعداء المدينة ويتنصر للبشرية المظلومة

وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها ديب الحياة ، وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازا تتزلزل به أركان الطيور التي قد عششت عليها وباضت وفرخت وهي تحسب أنها ميتة لأحرارها ، وإذا ببيوت العناكب تنفتحت وتتساقط ، وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم بارتجاج ايوان كسرى وخودنار المجوس أما رأيت كيف تتناثر المباني المحصنة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهر الأرض فكيف لا تتزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر بيعة النبي الأعظم ﷺ وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم .

بعث محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ في مكة قلب العالم المتمدن المعمور فأرسل صيحة دويت بها الغابات وجاوبتها الجبال وذلك قوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، كلام وجيز يحمل في أثناؤه عالم المعاني والحقائق ، ولقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتأثر ولم تتزلزل بشئ مثل ما زلزلت في هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة وأن الذهن البشري لم يضرب أبدا قبل هذه ضربة موجعة فتألم بها هذا الذهن البليد واستشاط غضبا وجن جنونه وقال : « أجعل الإله الها واحدا إن هذا لشئ عجاب ، واعتقد قادة هذه الحياة أنه أمر مبين وخطة مدبرة ضدهذه الحياة السائدة وأنه لا بد من مكافحتها ، وانطلق الملامنهم أن امشوا وأصبروا على الحكم إن هذا لشئ يراد ، لقد كانت ضربة قاضية على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها بتأثيرها على كل الحضارة والسياسة بجميع أركانها ،

لقد كانت - ولا تزال - هذه الكلمة تعني أن هذه الحياة ليست أجرة برية وحشية لم يعتن بها معتن بل هي حديقة منسقة غرسها الله تعالى وتعهد تهذيبها وأصلاحها ، وأن الإنسان ريحانة هذه الحديقة وروح الربيع وكيف تذبل هذه الريحانة

وتدوسها الاقدام ، او تخطفها الطير ، أو تهوى بها الريح ، ولم تؤد مهمتها ولم تحل المحل اللائق بها ؟ فتقتضى فطرته أن يعبد الله وحده وتطالبه نفسه السامية أن لا يقتنع بغير رضا الله ، ويقتضى شرفه وكرامته أن يجاهد في هذه السبيل ويبدل ما عنده من عقل ومواهب أو مال ومكاسب وليس للانسان أن يتطامن لجسد أو روح أو جبل ونهر أو شجر وحجر أو ثروة مشرأ أو جاء وجيه أو سلطان ملك ، أنه لا يسمو على كل مخلوق ويتضامل أمام خالقه ، ان العالم لم يخلق إلا لخدمته ويطيعه ، ان الله سبحانه وتعالى قد أسجد الملائكة الذين هم حملة القوى الكونية ليعلم الانسان أن هذا الكون خاضع له متواضع ، فبأمره وينها وبستخدمه لمصلحته الطيبة ويسخره لمآربه العادلة . . . (وذلك قوله لا اله الا الله) .

ثم ان حياة الانسان هي السهم الوحيد الذي يملكه فاذا أصاب غرضه فيا له من سهم مصيب ! وإذا طاش وأخطأ رميته فيا رزية رام ضيع سهمه الوحيد ! وان حياته لو وسيلة كل سعادة في الدنيا والآخرة وأنها رأس بضاعته فأخلق به أن يكون ضايعا بهذه الحياة شديدا لا احتفاظ بها وان لا يضيعها في تجربة واختبار وفي مخاطرة وقار ، وأن لا يخطئ فيها خبط عشواء ولا يركب العمياء فانما هي حياته الوحيدة ، وما أقبح القار في رأس المال وما أشده خطرا ! فينبغي أن يسير موكب الحياة بدلالة خريت حاذق مجرب فان المفاضة موحشة وقطاع الطريق كثير وأن يسير في ضوء النبوة والوحي فان عالم القياس والتخمين ظلام في ظلام وظلمات بعضها فوق بعض ، وأن النبوة هي النور الوحيد في هذه الظلمات المتراكمة والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم والنبي هو المتصل بهذا المنبع والواسطة بين الحق والخلق في الهداية ، ما ينطق من الهوى أن هو الا وحي يوحى ، وأن محمدا ﷺ هو آخر المتصلين بهذا المنبع وخاتم الانبياء والمرسلين الذي فسخ الله به الاديان ونصبه اماما لكل زمان ومكان ، وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشرية ومعاني الحسن والاحسان ، وهو المثل السكامل للبشر في كل عصر ومصر وأن دينه الذي جاء به هو رسالة كل عصر ودواء كل داء ، فلا يتم الايمان بالله ولا يمكن الوصول اليه إلا بالايمان بالرسول عامة وبمحمد ﷺ خاصة ، وذلك قوله و محمد رسول الله ،

وان الانسان ليحمل في رأسه طموحا لايشبع ، وهمة في قلبه لا تقف ، وروحا في جسمه لا تنف ، وقلبا في جنبه لا يطمئن فلا يروى غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق المتناقل وان طاعته وعصيانته لاوسع من أن يستوفى ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود ، فتلزم له حياة خالدة وعالم لا يعرف الثغور والأطراف ليست هذه الحياة الاقطرة من يم إذا قورنت بالحياة الآخرة وليس هذا العالم إلا شبحا إذا قوبل بالعالم الآتي ، وذلك هو الايمان بالبعث والحياة الآخرة الذي هو تمام الايمان ، وثالث الأركان في الأديان .

لقد بلغ الذهن الانساني في القرن السادس المسيحي من الشلل الفكري وبلادة الحس غاية عجز معها عن أن يتخطى الماديات والمحسوسات وما يتصل بالجسم والبطن وأن يعتقد لانسان اختصاصا بالنبوة والوحي ؛ لقد كانت لهم مقائيس ورؤى هاعن آبائهم فاذا رأوا بدعا من البشر أو مثالا جديدا للانسانية قاسوه بمقائيسهم فلقد كان بينهم رجال يرون أنهم المنتهى في العظمة الانسانية فاذا نبغ فيهم عبقرى أو ظهر فيهم رسول قاسوه بهم ، لقد أفرغوا جهدهم واثروا كنانة فكريهم فلم يروا إلا أن محمدا ﷺ أما طالب ثراء ورخاء أو رائد سيادة وملك أو منتج ترف وظهر ، وإذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا أنه لم يبعد النجعة فانه لم يجرب طموحا فوق طموح الملوك وتجاوزا أكثر من تجاوز الامراء والوزراء فأرسلوا اليه عتبة بن ربيعة فحكمهم محمد ﷺ وكان ما قاله تمثيلا صحيحا للذهن ذلك العصر وتعبير أصادق عن عواطفه ونفسيته قال : يا ابن أخي أن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت انما تريد به شرفا دسوك علينا حتى لا نقطع أمرادونك ، وأن كنت انما تريد به ملكا ملكناك علينا . . .

وما أجاب به رسول الله ﷺ كان تمثيلا صحيحا للنبوة وعرضا صادقا للموقف الأمامي الوليد فأثبت انه لا يطمح الى ثراء ورخاء أو شرف وترف ، إن نفسه عالية لتسمو عن هذه الحسائس سمو السماء على الأرض إنه لا لاهمه راحته الذاتية وورقه الشخصي انما يقلقه مستقبل البشر إنه لا يصنع لنفسه جنة شداد بل يريد أن يعيد الانسان المنفي إلى الجنة الخالدة التي أعدت له ، انه لا يسعى ليسود قبيلة

أو أمة بل يريد أن يخرج الانسان من حكم الانسان كائنا من كان ويدخله في حكم سيده الذى هورب السماوات والارض .

على هذا الاساس نهضت هذه الامة وبهذه الرسالة انتشرت في العالم وان ما اجاب به رسل المسلمين في مجالس رستم ، ويزدجرد يمثل تمثيلا صادقا لروحها ونزعتها قال ربى بن عامر : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام ، ولما أمكنهم أن يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفذوا فعلا ما كانوا يدعون اليه غيرهم ، فخرج الانسان من حكم الانسان الى حكم الله وعدله ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة بل كان الأمر والنهى لله يقول الخليفة الأول : « أطيعوني ما أطع الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » ، وقال عمر لعمر بن العاص وقد ضرب ابنه رجلا من أهل مصر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش في عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الامة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو أجير فيضع الحمل على رأسه فيحمله إلى بيته ، وكان أكبر غنى منهم يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل فيستعين بملذات هذه الحياة الفانية ويدخر طيباته للحياة الخالدة .

كان وجود هذه الامة في كل ناحية من نواحي العالم رمزا لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية وكان كل فرد من أفراد هذه الامة يمثل للعالم وليدا وميتا ان وراء القوى المادية قوة سماوية ووراء الحياة الفانية حياة خالدة فاذا ولد ولد صرخ في أذنه بهذه الحقيقة وإذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة ، إذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت وغاص الناس في بحر الحياة إلى آذانهم واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية إذا بصوت يدوى « حى على الصلاة حى على الفلاح » ، فينكسر طلسم العالم المادى وتتجلى الحقيقة الروحية ويجرى الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم ، وإذا ضرب الليل رواقه ومد النوم أظنابه على هذا العالم الحى الصاحب فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب إذا بمعين الحياة ينصب في وادى الموت : ينبجج الصبح الصادق في الليل الغاسق وتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درسا في الحياة والنشاط

والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة ، وإذا اغتر أحد بقوته وسلطانه وزها
بكثرة ملأته وأعوانه وقال بلسان المقال أو بلسان الحال : أنا ربكم الأعلى .
أو : ما لكم من اله غيرى . قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من
بقاع مملكته أو نفوذه ونادى : الله أكبر الله أكبر ، فينادى بحكم الله في مملكته
وبرغم أنف الاله الكاذب في سلطانه .

إذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الأرض أو أجليت منها لم يصب
نظام المعيشة بشل أو خلل ، وظل الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الأنعام .
وظلت رضى الحياة تدور دورها الطبيعى ، ولكن روح ذلك المجتمع الانسانى
يفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح ، كذلك كان فى اسبانيا
وكذلك كان فى كل بقعة انسحب منها المسلمون أو أجلاهم عنها أهلها ، وهل اسبانيا
الحاضرة الا مدنية بلا روح وحياة بلا مبدأ وأمة بغير رسالة للعالم ؟

أن المؤمن وحده هو صاحب عاطفة فى هيكل العقل والمادة الذى لا يعبد فيه
إلا النفس والبطن ، وهل الحياة إلا بالعاطفة ؟ وهل الدنيا إذا ماتت العاطفة وغلب
العقل وحكمت المادة الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فإذا ثار المؤمن للحق
كسر طلاس العقل وفك سلاسل الكون وحطم أصنام المادة وأعلى على العالم
إرادة الله فإذا هو مطيع خاضع وإذا هو متواضع خاشع ، وقلب تيار الحياة وغير
وجه التاريخ وأرغم الكون على أن يسير سيرته .

حالت دجلة فى سيل المسلمين دون المدائن وكانت السنة كثيرة المدود ودجلة
تقذف بالزبد لجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : ألا انى قد عزمت على
قطع هذا البحر اليهم ؟ فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، فندب
الناس الى العبور وأذن لهم فى الاقتحام وقال : قولوا : نستعين بالله ونوكل عليه
حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه وليهزم من عدوه
ولا قوة الا بالله العلى العظيم وتلاحق الناس فى دجلة وهم يتحدثون كما يتحدثون
فى البر وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ . شىء (١)

نزل طارق بالاندلس والبحر وراءه والعدو أمامه والمستقبل رهيب والطريق
مظلم والارض كفة حابل والعدد زهيد والمدة بعيد فهزى بأشباح المادة الخفيفة
وعاند العقل وأمر باحراق السفن التي ترجع به الى بلاده (١) وعزم على الفتح
وأيقن بالنصر ، فهزم العدو وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين .

أراد عقبة بن نافع ان يتخذ مدينة في اقربيه يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم
وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكانت
وحلة مشبعة بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله وكان
مستجاب الدعوة ثم نادى أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله ﷺ
أرحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس ذلك اليوم الى
الدواب تحمل اولادها وتنقل فرأه قبيل كثير من البربر فأسلوا (٢)

خرج محمد بن قاسم وهو ابن سبع عشرة سنة لغزو الهند ومعه حفته من الناس
وبالبحار حائلة وبلاد العدو واسعة الاطراف وعرة المسالك لم يجربها العرب
فهزى بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة واذا بالهند
من السند الى الملتان خاضعة للمسلمين .

ان العالم كله مدينة الاوهام ، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول وعقيدة
لا تتحول ، وهو في يقينه في عالم الاوهام كصباح الراهب في الغابة المظلمة
ومنارة النور في بحر الظلمات والجزيرة التي يأوى اليها البائسون ، والطود الذي
لا تزحزحه السيول ولا تزلزله العواصف وقد يمسك بيقينه ولا يوافق على ذلك
أحد ولا يصدقه احد فلا تخور عزيمته ولا تلين عريكته ولا يرتاب ولا يتلدد
والناس بين معارض ومتقد ومطيع كاره او مخالف معتزل وهو لا يحفل بذلك
ويعضى كالسيف حتى يهزم يقينه الف جند من الشك وينقشع سحاب الاوهام
ويظهر يقينه مثل قلق الصبح

استعمل النبي ﷺ أسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه الى الشام ، وتوفي

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٢١

(٢) السكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢٢٤

النبي ﷺ ولم يسر الجيش وارتدت العرب اماماعة أو خاصة من كل قبيلة وظهر النفاق واشترأت يهود النصرانية وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيهم وقتلهم وكثرة عدوهم فقال الناس لابي بكر ان هؤلاء - يعنون جيش أسامة - جند المسلمين ، والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال أبو بكر : والذي نفسي بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ فخطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو ولن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل ، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشه الى ابي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال : إن معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله وحرمة رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب : إن أبا بكر خليفة رسول الله الا فامض فابلغه هنا واطلب اليه ان يولى أمرنا اقدم سنامن أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة الى ابي بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ارد قضاء آقضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته ، قال عمر : فان الانصار تطلب رجلا اقدم سنامن أسامة فوثب ابو بكر وكان جالسا واخذ بلحية عمر ، وقال : ثمكلك امك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني ان أعزله ؟ !

وسار أسامة وأوقع بقبائل من تاس قضاة التي ارتدت وغنم وعاد ، وكانت غيبته اربعين يوما ، وقيل سبعين وكان الفاذ جيش أسامة اعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما ارسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه (١)

ان العالم سوق لارحة فيها ولا شفقة ولا مساحة فيها ولا كرم ، والمؤمن

وحده هو الذى يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ويسامح مدينه وعدوه ويتأذل من ملك واسع وعرض قريب طمعا فى الاجر ومحافظة على الكرم .
تغلب ملك كافر على دولة اسلامية فى بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة وخرج محمود شاه الخلقى صاحب مالوه من بلاده هاربا عنه الى كجرات فنهض السلطان مظفر الحليم - وكان الخلقى لا يزال على القلعة وشرع فى المحاصرة وجد فى اسباب القنح ودخل القلعة عنوة ووضع السيف فيهم وكان آخر امرهم انهم دخلوا مساكنهم وغلقوا الابواب واشعلوها نارا فأحترقوا واهليهم وبلغ عدد القتل من الكفرة تسعة عشر الفا سوى من غلق بابه واحترق وسوى اتباعهم ، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلقى التفت اليه وهنأ بالفتح ودعا بالبركة فى ملكه وقال له بسم الله ادخلوها بسلام آمين وعطف عنانه خارجا من القلعة الى القباب ، وهيا الخلقى الضياف ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع فأجابه ، فلما فرغ من الضيافة دخل به فى الابنية التى هى من آثار ابيه وجده فأعجب بها وترحم عليهم ثم جلسا فى جانب منه وشكره الخلقى وقال الحمد لله الذى ارانى بهتك ما كنت اتمناه بأعدائى ولم يبق لى الآن ارب فى شىء من الدنيا ، والسلطان اولى بالملك منى وما كان له فبولى فأستلك قبول ذلك والسلطان ان يقيم به من شاء فالتفت السلطان اليه وقال له ان اول خطوة خطوتها الى الجهة كانت لله تعالى والثانية كانت لتصرفتك وقد نلتها فاقه ببارك لك فيه ويعينك عليه ، وسأله أركان دولته ان يستأثر بدولة الخلقى فالتفت الى محمود وقال له احفظ باب القلعة برجال لا يدعوا أحدا يدخلها بعد نزولى حتى من ينتسب الى وانصرف الى بلاده (١)

العالم بلاد لا يعيش فيها الا من يجعل فى جنبه قلبا كانما قد من حجر ، لا يعرف الحنان والرحمة ولا يعرف معنى الحب والايثار ، والمؤمن وحده هو الذى يحمل فى جنبه قلبا يفيض حنانا ورحمة للبشر ، ويجمع بين الرحمة والشدّة والصلابة والارقة وشكيمة الاسد وحنان الام ، تخلق بأخلاق الله فجمع بين الرأفة والعزة والجمال والجلال ، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ فلا ينضب لنفسه حتى اذا تعدى

الحق لم يقيم لغضبه شيء، فينما تراه في ساحة الجهاد كأنه ناز في حطب أو منجل في حقل ليس له عاطفة ولا قلب، إذا به تراه في الصلاة تهمل عيناه ويغلي صدره كالمرجل وتراه يرق للضعيف ويخبر على الأرملة واليتيم، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الخنظل إلا أن الأولى له سجية وطبيعة والثانية له وسيلة مذبذبة فهو يفتد بلسان الحال «وإني أخلو تعتريني مرارة، لا يدع السباحة والكرم حتى مع العدو ولا يترك التمسك بالاخلاق العالية حتى في ساحة القتال».

هذا صلاح الدين الذي سار مثلاً في شدته وجلادته، تستغيث به امرأة اختطف ولدها فهي تبكي بكاء الكلى، فيرق لها بطل حطين ويطوف بها على القبائل والمنازل حتى تعرف ابنها وتضمه إلى صدرها (١) ويهدي إلى قرنته وأعدى ع.وه في العالم وتشرد الثلج والفواكه في مرضه (٢).

الناس من خوف الموت في الموت وأشد من الموت، يعدون هذه الحياة رأس مالهم ومنتهى آمالهم فليس من الغريب أن يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، حتى إذا جاءه الموت خرج من الدنيا حزينا متلهفا على ما يفارقه كاره مستبشعاً لما يستقبله أما المؤمن فهو دائم الحنين إلى ربه، شديد الشوق إلى جنته، لا يبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع، يستقبل الموت باسم الثغر جذل القلب فرحاً مستبشراً كأنما هو خارج من السجن أو عائد إلى الوطن

لما طعن جبار بن سليم عامر بن فهيرة يوم بئر معونة فأنقذه قال عامر: فزت ورب الكعبة (٣) ولما ضرب ابن ملجم على بن أبي طالب. قال فزت ورب الكعبة (٤)

قام أبو عبيدة في الناس في طاعون عمواس، فقال: أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظه فلعن فأت واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيباً بعده فقال: أيها الناس إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن معاذاً يسأل الله أن يقسم لآل معاذ حظهم فلعن عبد الرحمن فأت ثم قام فدعا

(١) (٢) الفتح القسبي في الفتح القدسي : لمعاد الدين السكاكبي
(٣) طبقات ابن سعد (٤) كتاب المتعجبين لمعز بن محمد بن الفضل

به لنفسه فظعن في راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول ما أحب ان لي بما فيك شيئاً
من الدنيا (١)

وحضر بلالا الوفاة فقالت امرأته واحزنانه . قال بل واطرباه ، غدا نلقى الاحبة
محمدًا وحزبه (٢) وكذلك روى عن عمار انه كان يقول ذلك عند وفاته (٣)
المؤمن هو الذى يستطيع أن يفضل الفقر على الغنى والآخرة على الدنيا
والنسيئة على النقد الحاضر والغيب على الشهود والدين على الحياة في كل دور
من أدوار التاريخ مهما بلغت المادة أوجهاً .

ليس لقطر من الاقطار أن يمين على الاسلام بأنه فسح له في أرضه ، وانما
الفضل والمنة للاسلام على كل قطر فقد أنقى عليه درساً في التوحيد الذى لا يشوبه
شرك ، وحب الانسانية العامة واحترامها ، ووسع افق خياله فصار يرى للحياة
معنى غير معنى ، وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم وعالم أفسح من
وكره الذى يعيش فيه ، انه وضع عن كل أمة اصرها والاغلال التى كانت عليها
وانقذها من العنصرية والخنسية والوطنية وعبادة المال والبيوتات والاشجار
والاحجار والحيوانات والانهار والادواح والاجرام السماوية ، ومن الرهينة
الفاتكة بالمدينة والعزبة المقاطعة للنسل وهو الذى كسر طلسم الاوهام التى مضى
عليها قرون ودرج عليها أجيال اطلق العقل من أساره ورفع الحجر عن العلم
ونسخ احتكار البيوتات للدين ورسم في الذهن منزلة العمل الفردى والسعى
الشخصى واستقلال كل انسان بعمله ومسئوليته ومن الذى يستطيع ان ينكر أن
الفضل في تقدم العالم وقطع مراحل المدنية والعلم انما يعود الى الاسلام ، ومن الذى
يجمل اليوم أن الفضل في تقدم اردبا وتخلصها من رق الاحبار والرهبان وسلاسل
الكنيسة والحكم المطلق ، وفي العكوف على العلوم الطبيعية والتجربة ، والخروج
من الهمجية الى الحضارة انما يعود الى الأندلس الاسلامية التى ظلت قروناً طويلاً
مشعل الثقافة ومنبع العلم ومدرسة الفن والتأليف في العصور المظلمة ! إن كلمات

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢٦ (٢) الغزالي في الاحياء عن ابن ابي الدنيا

(٣) الغزالي

العدل والمساواة والانسانية والعالمية منتشرة ذائعة اليوم في كل ناحية من نواحي الهند وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتائبها ، وخفيفة على لسان كل خطيب ومتكلم ، ومن ذا يكار في أن الاسلام هو الذي عرف هذه الكلمات إلى أهل هذه البلاد وسعى في رواجها وذبوعها في بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها ،

أن المسلمين ليسوا نسلا أو شعبا محسب ، وليس الاسلام عادات وتقاليد وتراثا بتوارثه ولد عن أبيه ، أنه دعوة ورسالة وحياة وعقيدة تقتضى بالطبع أن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات والمحسوسات ومن عالم النفوس والبطون ووطنه أوسع من المنطقة الصغيرة التي ولد فيها ، وأن يكون قلبه عامرا بحب كل انسان كائنا من كان ، وأن لا تكون الارطان والانساب ه نقا في سبيل حبه وعطفه وأن لا يكون سميه منحصر في نطاق الحياة الضيق ، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين أن يحمل للبشرية رسالة للروح والقلب والعاطفة والسياسة والاجتماع ويملك قوة أخلاقية تراقبها في النور والظلام والوحدة والاجتماع والعجز والمقدرة عنده أساس متين من العلم وبيئات ومحكمات في المدنية ، وحياة نبى كان ولا يزال المثل الكامل للبشرية في مختلف ظروفه وأحواله ومختلف عصوره وأجياله ، وكل عصر وقطر ومفزع الانسانية في كل ساعة عصيبة وكلما حلت بها أزمة عجزت عن حلها العقول البشرية والنظم الاجتماعية والسياسية :

إذا حجب الليل النهار ، وهجمت جنود الهوى من كل جانب وهزمت الفضيلة والاخلاق ، وإذا أصبح الانسان ينحر أخاه لأجل فلس أو لأجل قرص ، وإذا أصبحت الشعوب الكبيرة تزدرد الشعوب الصغيرة في سبيل الجشع أو الخيلاء وإذا صار وثن المال يعبد على قارعة الطريق ، وإذا ضحى بألوف من الناس على انصاب الجنسية والوطنية ، وإذا حال الانسان بين الانسان ورزقه ، وإذا انتهت نار الشهوات وانطفأ نور القلب ، إذا نسي الانسان الموت وعكف على الحياة يعبد لها إذا غلا الجماد والمعادن ورخص الانسان في سوق العالم فصارت المدن العامرة تسوى بها الأرض وألوف من البشر يقتلون في دقائق وثوان بالقنبلة الذرية : إذا تغلبت الاسم الاوروبية على العالم وجعلته بيت المقامر أو سوق الجزارين

وعبثت بالإنسانية عبث الوليد بجانب القرطاس ، وتلاعبت بالأمم كالكرى ، إذا
ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، هنالك يستصرخ هذا الكون
المؤمن ويستغيث به وهنالك تتأدب الإنسانية باسم الإسلام الذي طلع كالصبح
الصادق في ظلام الليل الحالك وباسم محمد ﷺ الذي أغاث الله به الإنسانية في
احتضارها وانتحارها وحفظ به مهجة الإنسانية وأدال به من الجاهلية الجلاء .

فهل يسمع المؤمن في جزيرة العرب التي أشرقت منها شمس الإسلام وفي حواضر
البلاد العربية في آسيا وأفريقيا وفي الأقطار الإسلامية عامة صراخ الإنسانية وعويلها
فيهب من نومه العميق الطويل الذي مله العالم ويثب كالأسد ربنهض كالصقر على
أعداء الإنسانية ، أه ، بذلك لجدير وبحول الله على ذلك قدير ، فهو معقل الإنسانية
ومنتهى الرجا ، وأمين الله في الأرض وخليفة الأيما .

بدعون سياراً إذا أحرر الفنا ، ولكل يوم كربة سيار

